الأزياء المملوكية من خلال المصادر التاريخية



د. نهال محمود نفوري
جامعة دمشق

مقدمة :

لسنا بحاجة إلى بيان أهمية الدراسة الأثرية والتاريخية للباس وتطوره في مختلف العصور، باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر الحضارة الإنسانية للوقوف على درجة رقي الأمم وحضارتها، وعلى المستوى الذي وصلته الحضارة المادية وما كانت عليه الدولة من انتعاش اقتصادي وفكري.

وتحتوي المصادر الأدبية والتاريخية والجغرافية، وكتب الفقه والمعاجم على الكثير من الألفاظ والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس مثال ذلك ما تطالعنا به مؤلفات ابن إياس، وابن خلكان، وهي غنية عن أي تعريف، وكذلك مجموعة خطط المقريزي وما توفر فيها من مادة دسمة لا تخفى على القارئ فائدتها، وكتاب آخر كصبح الأعشى للقلقشندي وقد أغنانا بمادة زاخرة عن موضوع البحث، فضلاً عن المخطوطات أمثال مخطوط الجزري: كتاب في معرفة الحيل الهندسية، ومخطوط المقامات الحريري للواسطى، كذلك كتاب ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. ولن يفوتنا أن نخص بالذكر مراجع لبعض المحدثين ومنها كتاب «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» للمستشرق دوزي، إذ ليس في مقدور أي باحث أن ينجز عملاً في هذا الميدان دون أن يستعين بهذا المعجم.

ونعود لنذكر بأن هذه التسميات والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس يعوزها الوصف الدقيق لكي نستطيع أن نكون لها صوراً واضحة في أذهاننا خاصة وأن الكثير منها لا يستعمل في العصر الحديث، وإذا رجعنا إلى المراجع الأثرية وجدنا عكس ذلك تماماً، فكثيراً ما نجد صوراً ملونة وواضحة، ودقيقة لمعظم أنواع اللباس في أكثر المخطوطات المصورة، ولكن أياً منها لم يعن بذكر تفاصيل اللباس ولا المناسبة التي يلبس فيها، ولكننا أحياناً قد نستطيع معرفة ذلك من سياق القصة أو الموضوع.

مما تقدم تبين لنا مدى حاجة المكتبة العربية

إلى أبحاث تجمع بين ما تزخر به كتب التاريخ والمعاجم في أسماء وألفاظ خاصة باللباس لكي تسمى بها الصور والرسوم الكثيرة الواردة على المخطوطات والآثار ومن هنا كان السبب لاهتمامي بالموضوع.

مدخل:

يرجع أصل المماليك إلى قبائل التركمان الرحل التي استوطنت بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهرين.

استفحل أمر المماليك بعد أن تولوا مناصب قيادية في الدولة الأيوبية، واشتد نفوذهم وسطوتهم في عهد السلطان (الصالح أيوب) وتمكنوا من انتزاع السلطة لأنفسهم، وأسسوا دولة المماليك البحرية (نسبة إلى مكان سكنهم قرب النيل) عام (647-792هجري 1250-1390م)[1]

انتهى حكم دولة المماليك البحرية لمصر وسوريا عام (784 – 1390م) على يد طائفة أخرى من المماليك الشراكسة الذين يرجع نسبهم إلى بلاد الشركس وجورجيا، وذلك في عهد السلطان «قلاوون» (678-689هـ 1279-1290م) حيث أسكنهم في أبراج القلعة مما أكسبهم اسم المماليك البرجية.

شكل (1) قطعة من النسيج بداية القرن 14م
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة

واستمروا في حكم مصر وسوريا تحت زعامة السلطان برقوق حتى الغزو العثماني لمصر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

أدى انتقال مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر(بعد اجتياح المغول لبغداد) إلى ازدهار الحياة الثقافية وإلى النهضة الفنية وذلك بعد أن أصبحت مصر مركزا للعالم الإسلامي، حيث ظهرت عناصر من الفنون التركية [2]، أدخلت على الفن آنذاك مما ترتب عليها انقلابات فنية جوهرية في الفن الإسلامي، وقد كان للنشاط التجاري في عصر المماليك فضل كبير في اتصال مجتمع الإسكندرية والقاهرة بكثير من أزياء المجتمعات الأوروبية والهندية والإيرانية والصينية عن طريق هؤلاء التجار الذين تولوا نقل المتاجر من المنسوجات الحريرية والجوخ و المخمل (القطيفة) بين الشرق والغرب وبيعها في الفنادق والخانات والوكالات التجارية والأسواق المصرية المنتشرة في المدن وعواصم الأقاليم[3] ...

كما أن هجرة الفنانين والصناع إلى مصر بعد تخريب المغول لمراكز الحضارة الشرقية الإسلامية في إيران والعراق والشام[4] كانت فرصة سانحة لإثراء الأقمشة والأزياء المملوكية وإدخال بعض التصميمات إليها (شكل-1 شكل2).

وكانت الأقمشة تنسج في مناسج خاصة أطلق عليها اسم «دار الطراز»[5] وكانت منتشرة في جميع أرجاء دولة المماليك: الإسكندرية ومصر ودمشق وغيرها[6]، وكان السلاطين يشرفون عليها بشكل مباشر ونستطيع أن نحدد بعض أنواع القماش الفاخر في وقت المماليك سواء المحلي الصنع مثل الاسكندراني (نسبة إلى مكان صنعه في الإسكندرية)، أو المنمر[7]، واشتهرت كذلك الأقمشة المصنعة في دمشق وحلب مثل البروكار أو الدمشقي

شكل (2) غطاء أو عباءة فضفاضة من غير أكمام تلبس فوق الملابس - بداية القرن 14 - مصنوعة من الحرير الطبيعي بزخارف نباتية متحف كليفلاند للفن

وكذلك «الأطلس» والذي استخدم بكثرة في صناعة «الخلع» والملابس الخاصة بالأمراء وكبار رجال الدولة، ومن الموصل كان قماش الموصللي أو الموسلين إلى جانب الأنواع المختلفة التي استوردت من بلاد الفرنجة والصين، وعموماً فصناعة النسيج في عصر المماليك لم تكن فقط لطبقة المماليك التي عاشت طبقة أرستقراطية في مصر والشام، فكان هناك إلى جانب ملابس السلطان والأمراء، ملابس للجنود وملابس للخليفة وللعلماء ولرجال الدين وملابس للطوائف الدينية غير الإسلامية من مسيحيين ويهود وسامرة، وملابس للنساء.

ولقد ساعد الرخاء الاقتصادي في العصر المملوكي على البذخ والتبذير والميل إلى الترف في جميع مناحي الحياة وتحديداً في صناعة الأزياء مما أدى بدوره إلى المبالغة في أشكال الملابس وزخرفتها وزينتها. وقد بالغت بعض نساء الطبقة الحاكمة في البذخ إلى أقصى درجاته فيذكر أن زوجة السلطان برسباي كانت قد صرفت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب صنع خصيصاً من أجل حفل ختان ابنها ولي عهد برسباي «الملك» العزيز يوسف[8].

وكان من المألوف خلال عصر المماليك الجراكسة أن يرتدي الجنود والكتاب وعامة الشعب وكافة النساء ومن مختلف طبقات المجتمع الفراء المستورد[9] وهذا أكبر دليل على مظاهر الأبهة والبذخ التي كانت سائدة آنذاك، ومن الجدير ذكره بأن ظروف الحكم القوي والانفتاح باتجاه الخارج والرغبة في التمتع بخيرات الدنيا والتي في أحيان كثيرة كانت تباعد مابين أفراد المجتمع وتعاليم دينهم وهذا ما كان يجعل رجال الحكم من الخلفاء والسلاطين يلجؤون إلى إصدار المراسيم لتنبيه الناس بإسرافهم في ملذاتهم وإفراطهم في الانبهار بالأزياء الحديثة والجري وراءها[10].

وهذا ماحدث عام (912 - 15150م) بمناسبة عيد الفطر حيث أهدى السلطان «قانصوه الغوري» ثياب التشريفة (الخلع السلطانية)[11] وهي مصنوعة من القطن الملون الذي لا يساوي الثوب منها أكثر

من ثلاثة دنانير بديلاً عن الثياب الفاخرة التي جرت العادة على إهدائها في مثل هذه المناسبات في فترات الحكم السابقة وكان الهدف من ذلك أن تكون هذه الثياب مصنوعة من القماش الذي حث الدين الإسلامي الرجال على اتخاذ ملبسهم منه، وإلى تنبيه الناس بالبعد عن المحرم من الثياب.

الزي:

تطور الزي في عهد المماليك تطوراً ملحوظاً، فالزي كالفن سريع الحساسية، في بادئ الأمر كان الزي المملوكي متأثراً بالذوق الآسيوي الخشن، ثم مالت أزياؤهم نحو الرقة والرفاهية، حتى وجد بين سلاطين المماليك وأمرائهم من بلغ أعلى مراتب الذوق، فضلاً عن الحساسية المرهفة للألوان[12]، ولقد امتازت أزياء المماليك بألوانها المتعددة، على عكس اللون الأبيض الموحد[13] الذي كان شعار الدولة الفاطمية، فقد غلب على أزيائهم لونين أحدهما كان اللون الأسود، وكان شعار الدولة العباسية، وقد اتخذه من بعدهم الأيوبيون الذين قضوا على الفاطميين، واستمر في عهد المماليك حماة الخلافة العباسية، التي انتقلت من العراق إلى مصر، كما ونميز اللون الأصفر، الذي أصبح لوناً مميزاً لسلاطين المماليك.

وكان ظهور المماليك بألوانهم المتعددة في المواكب والأعياد والمناسبات من شأنه أن يبهر أعين عامة الشعب وذلك في كافة أرجاء الإمبراطورية المملوكية.

زي الخليفة :

كان الخلفاء العباسيون في مصر يواظبون على اتباع تقاليد بغداد في لبس السواد وهو الزي الذي ظل يميز ملابسهم ويتخذ (شعاراً) لأتباعهم ومن يلوذ بهم وطبقا لمنصبهم الذي كان روحياً أكثر منه زمنياً دنيوياً. ولبس ما يسمى: خلعة الخلفاء أو التشريفة أو السواد[14]، وقد أوردها ابن الجوزي (ت 597هـ) في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) وتتألف من:

البردة: وكانت من ملابس النبي محمد (ص) وهي عبارة عن قطعة طولية من القماش الصوفي السميك، الذي يستعمله الناس لإكساء أجسامهم به خلال النهار والمتخذ كذلك غطاء أثناء الليل. أما لون هذا القماش فأسمر، أو رمادي ويبدو أن هذا النسيج كان في العهود القديمة مخططاً على الدوام.

القباء: وكان يطلق عليها اسم فرجية وحسب دوزي القباء: (لباس خارجي للرجال، فارسي الأصل، يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة)[15]

وكان القباء شائع الاستعمال في عهد الرسول محمد (ص) ويورد المقريزي (وصف مصر ج2، ص350)، أن الأمراء والجنود والسلاطين المماليك كانت ملابسهم أيام الدولة الجركسية هي (أقبية إما أبيض أو أحمر أو أزرق، وهي ضيقة





الشكل (3) مسكوكة فضية (241هـ 855-م) تحمل صورة الخليفة العباسي المتوكل على الله متحف فينيا تظهر بوضوح عمامة الخليفة العباسي

الأكمام على هيئة ملابس الفرنج وبعد ذلك في (ص351) يعلمنا نفس المؤلف أن السلطان المنصور قلاوون أبطل لبس الكم الضيق) وكانت الأقبية تعمل من قماش الأطلس وكانت تفرى في بعض الأحيان.

القميص والرداء: وهو من ملابس الخلفاء العباسيين ولقد وصفه دوزي في معجمه ص 300: يلبس الشرقيون القميص فوق السروال، ويمكن أن يصنع من التيل، أوالكتان، أو القطن، أو الشاش الموصللي، أو من الحرير والقطن المخططين، وجميعها بيضاء لا تشوبها ألوان أخرى، أما عن هيئة القميص فله كمان واسعان للغاية يهبطان إلى المعصم، ويتدلى القميص إلى منتصف الساقين.

4 - غطاء الرأس: كان غطاء الرأس عند الخلفاء



شكل (4) مخطوط يعود (900هـ-1494-م) الإسكندر الأكبر وحكماؤه السبعة للرسام بهزاد موجود بالمكتبة البريطانية لندن يظهر فيها جبة القضاة وكذلك أنواع مختلفة من العمائم

يتكون من عمامة مدورة لطيفة لها طرف (عذبة) يتدلى خلف الظهر يطلق عليه اسم الرفرف[16] ويبلغ طوله قدمين (60) سم وعرضه قدم واحد وهو مرسل من أعلى العمامة إلى أسفلها، وفي المناسبات الرسمية والدينية كان الخليفة يرتدي (العمامة البغدادية)[17] وهي عبارة عن عمامة صغيرة لها طرف أو طرفان مسترسلان، ويضع على منكبيه رداء (طرحة) سوداء، مرقومة بالبياض أحياناً، تستر العمامة وتتدلى على الظهر حتى الكعبين، ونقرأ أحياناً أن ملابس الخليفة لم تكن كلها سوداء دائما[18] وخلال حكم السلاطين الجراكسة، حرم على الخليفة ارتداء ثوب الخلافة، فكان يرتدي أحياناً ملابس الطبقة العسكرية الارستقراطية السائدة في عصره.

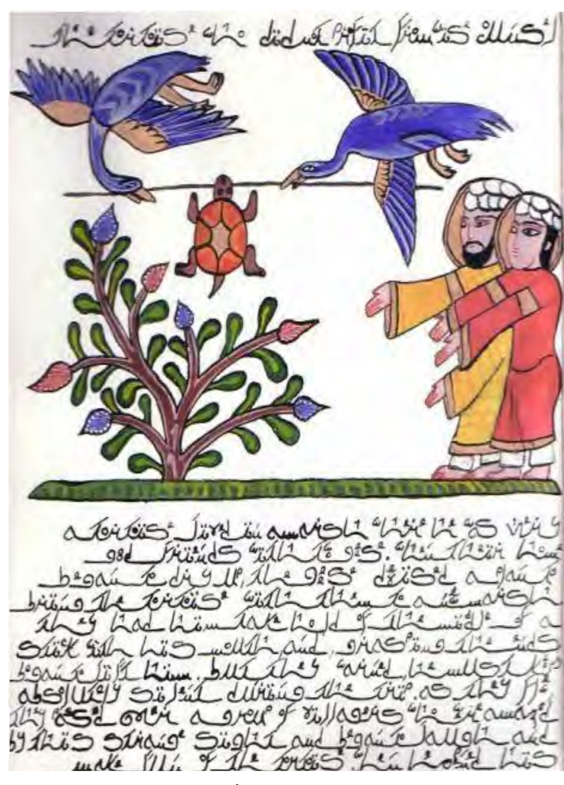
ونظراً للمكانة الروحية التي تمتع بها الخليفة فلقد حرمنا من أية رسومات لهم فقد وضع هؤلاء الخلفاء في أرفع مكان، بحيث تعذر اتخاذهم نماذج للصور التي تزين الكتب.

ونظراً لأن الخليفة استمر اتخاذه لأزياء عباسية فلقد استعنا بمسكوكة فضية ضربت سنة (241هـ - 855م) عليها صورة الخليفة العباسي المتوكل، وتظهر فيها عمامة الخليفة (شكل3)

زي السلطان:

كانت المواكب وغيرها تتطلب من السلطان لبس أفخر وأنفس ملابسه في كل مناسبة[19] وكان سلاطين المماليك يتمتعون بذوق كبير في لبسهم، ويكفي أن نذكر من المتأنقين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي لبس قميصاً دعي بالقمجون أو البدن[20]، وكان عبارة عن ثوب قصير من غير بطانة تحته، ولا غشاء من فوقه، وهو من الصوف، أو الجوخ، ولقد تداول الناس لبسه وذاع صيته في أوروبا فأصبح موضة لدى الفرنجة.

وكان السلطان يلبس لكل مناسبة زياً، وكذلك يغير قماشه على حسب الفصول[21] ففي الصيف يلبس الأقمشة الخفيفة البيضاء وفي الشتاء يلبس الجوخ، والصوف، والفرو، وكان يقام لهذه المناسبة احتفالات رسمية لتغيير[22] الملابس مابين الصيف والشتاء، وذلك بالخروج به في موكب رسمي.



شكل (5) مخطوط كليلة ودمنة - لأبن المقفع 1354م موجود في مكتبة بودواليان اكسفورد

تظهر فيه - الدراعة - السروال - الخف - العمامة الصغيرة

وكان السلطان إذا خلع رداءه مرة، لا يلبسه مرة ثانية مطلقاً، حيث تودع ملابسه المستعملة في مكان خاص، وقد ينعم بها على أمرائه وخاصته، ولعل الزي الأهم للسلطان، والذي توفرت عنه معلومات وافية هو: زيه حين توليه السلطنة وهو مايسمى بالسواد الخليفتي أو خلعة السلطنة[23] أو قماش الخدمة، ذلك لأن الخليفة العباسي الذي أقام في مصر، كان حسب الأنظمة هو الذي يلبسها للسلطان في احتفال كبير والمهم الذي يجب أن نذكره أن ملابس التنصيب هي ملابس رجل دين أصيل، وقد شرح المقريزي وبالتفصيل ملابس السلطان بيبرس الأول التي أرسلها إليه الخليفة العباسي كخلعة، وكانت تتألف من:

عمامة سوداء: منسوجة بخيوط من الذهب إذ كان (شعار) السلطنة الرسمي (عمامة سوداء) و(جبة سوداء) ، ويعتبر اللون الأسود تحديداً هو شارة الولاء للخلافة العباسية، والتي اتخذت هذا اللون شعاراً لها منذ نشأتها وظل الخلفاء العباسيون يحتفظون به – مع استثناءات قليلة جداً- وكانت عمامة السلطان كعمامة الخليفة، لها طرف طويل (عذبة) يتدلى مسترسلاً بين كتفيه (شكل3)

الجبة أو الدراعة أو الفرجية: وتلك الملابس لا ترى إلا على المشايخ وحدهم، وسنشرح بالتفصيل شكل كل قطعة من هذه الملابس:

أ- الجبة: وحسب دوزي في معجمه ص، 91-92-93 ، بأن الجبة ملبوس يرقى إلى العهود الإسلامية الأولى وكانت من ملابس الرسول محمد (ص)، أما هيئتها فكانت عبارة عن ثوب ذي أكمام ضيقة وهي من الأمام أطول قليلاً من الخلف وممكن أن تكون من القطن أو الجوخ، وتبطن الجبة في الشتاء ببطانة من الفرو[24]. (انظر الشكل 4)

ب- الدراعة: يعلمنا المقريزي (تاريخ السلاطين والمماليك ج1، ق1، ص149) أن الدراعة لباس يميز الوزراء عن بقية ضباط القلم أو العدالة، ويصفها فيقول بأنها ثوب مفتوح من الأمام أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى. ونقرأ للمؤرخ سيلفستر دي ساسي (طرائف عربية ج1 ، ص250 النص العربي) أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان يلبس الدراعة المصنوعة من قماش أحادي اللون والدراعة كالقميص المفرط في السعة والفضفضة[25] (انظر الشكل 5)[26]

ج- الفرجية: وجمعها الفراجي: يصف لين (ألف ليلة وليلة، ج1، ص 324، النص الإنكليزي) هذا اللباس على هذه الصورة: (الفرجية ثوب فضفاض هفهاف، يعمل من الجوخ عادة، وله كمان واسعان طويلان يتجاوزان قليلا أطراف الأصابع، ويلبس هذا الثوب أفراد طبقة العلماء)

وفي تاريخ مصر للنويري (مخ2 ، ص49) أن الملك الناصر داود، لدى وجوده في بغداد، تلقى من بين الثياب التي تؤلف الخلعة (فرجية مموج) أي فرجية من مادة ما يسمى بالفرنسية (الزملوط – وبر البعير) ولقد اكتسبت الفرجيات المصنوعة في مصر شهرة كبيرة، جعلتها تحمل إلى الأقطار النائية[27].

أما الفرجية في الآثار فقد استطعنا تلمسها في رسوم بعض المخطوطات التي رسمت في تلك

الفترة – انظر (الشكل 4 + الشكل 6) كذلك يلبس السلطان في مناسبة توليه طوق ذهب يكون حول عنقه، كان يلبسه ملوك الفراعنة، ولعله موروث عنهم، وسيف مذهب في وسطه اسمه: العربي أو البدوي[28]، وقيد من ذهب يكون في رجله، للدلالة على أنه من المماليك، إذ أن السلطان لا يأنف من أصله المتواضع، كما أنه إذا ركب وضع في رجليه مهمازاً من الذهب.

أما لباسه أثناء المواكب: فكان يرتدي ما يسمى قماش الموكب[29]، وهذا يدل على أنه يلبس في المواكب الرسمية ما يلي:

لباس الرأس: وكان عبارة عن عمامة صغيرة سوداء مدورة على الرأس تسمى التخفيفة[30]، (عمامة صغيرة)، ولها عذبة، ترسل بين كتفيه قدر ذراع. وقد عرفت له عمامة أخرى، سميت: بالتخفيفة الكبيرة[31]، وقد وصفها ابن إياس من أنها



شكل (6) لوحة من مقامات الحريري مؤرخة (634هـ - 1237م) محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس - تمثل قافلة وتظهر فيه مجموعة مختلفة من ألبسة الرأس عمامة مخططة (بقيار) عمامة على طويلة - قلنسوة- قباء

تستخدم في مقام التاج عند السلاطين المماليك.

وكانت التيجان يلبسها ملوك فارس ولهذا أصبحت (التخفيفة الكبيرة) والتي أطلق عليها الناعورة، ذات القرون الطويلة هي التاج الخاص بالسلاطين المماليك كالتاج الذي اختص به الفرس.

وقد اعتاد السلطان الغوري لبس (التخفيفة الصغيرة) كلما وجد عذراً يبيح له ذلك، وذلك لثقل وزن التخفيفة الكبيرة، وتشاهد (الناعورة) في عدة صور رسمت من قبل فناني إيطاليا، ولعل أفضلها لوحة (حفل استقبال سفير البندقية شكل 7)

وأحياناً كان يتخذ لرأسه لباس الكلفة أو الكلفتة أو كلفتاه وهي الطاقية (كلوتة) ولدى دوزي: المعجم المفصل ص313 – إنها: (طاقية تؤلف هيكل العمامة)، وعلاوة على ذلك فإنها نفس كلمة كالوت، وهذا الجنس من الطاقية لم يكن يلبسه إلا رجال الطبقة الرفيعة . ونقرأ لدى المقريزي (وصف مصر، ج2، مخ372، ص350)، (أن السلطان والأمراء وسائر العسكر إنما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريباً عريضاً ولها كلاليب بغير عمامة فوقها، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدقوقة وهي في كيس حرير إما أحمر أو أصفر)[32](انظر الشكل 8) وفي ذلك تقليد للمغول بإرخاء ذوائب شعورهم.

ثم يخبرنا المقريزي أن السلطان الأشرف خليل (بدل الكلفتا الجوخ والصفر ورسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بكلفتات الزركش)

فأصبحت هذه الطريقة شعاراً في السلطنة. وكان السلطان في الحرب لا يلبس عمامة، وإنما يلبس خوذة، حيث توجد خوذة السلطان برسباي في متحف اللوفر- باريس(الشكل رقم 10)

أما لباس الجسد: فكان يلبس ما يسمى حلة الملك، أو الكاملية[33]، وكانت عبارة عن رداء عربي (جبة) من حرير أسود، لها طرف مذهب ومزخرف، وأكمام واسعة ومن تحتها إزارٌ،[34] أو فرجية (سبق شرحها) أو دراعة (سبق شرحها) – ربما أقصر من الكاملية – تكون بلون أسود أو بنفسجيا أو أخضر، من الصوف أو الجوخ أو الحرير، بتركيبة مزخرفة (زركش)، من خيوط مذهبة (الشكل 9).



الشكل (7) لوحة من مقامات الحريري - متحف اللوفر - أرشيف الصور الفوتوغرافية - السلطان قانصوي الغوري . يستقبل وفداً في سفراء البندقية في 10 مايو (أبار) 1512م. للتفاوض حول أسلم الوسائل لمواجهة البرتغاليين ويلاحظ السلطان جالساً على الدكة في باحة القلعة وهو يرتدي العمامة التخفيفة الكبيرة - ويجلس على يساره أكبر موظفي الدولة وهما الدوادار الكبير . والأمير (قائد الجيش) أما الوقوف على يسار الدكة . فهم كبار الأمراء المماليك . ويقف المترجم أما السلطان (هو الذي يظهر في اللوحة من الظهر) . وبجوار الترجمان البعثة الدبلوماسية البندقية برئاسة دومينيكو تريفزاني وعضوية خمسة من البنادقة.

ومع ذلك ففي بعض المناسبات يلبس رداءاً فوق ملابسه (قباء)، يصفه المقريزي (وصف مصر، ج2، ص350)، أن الأمراء والجنود والسلطان نفسه كانت ملابسهم أيام الدولة الجركسية هي: (أقبية إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم. وبعد ذلك (ص351) يعلمنا نفس المؤلف أن السلطان المنصور قلاوون أبطل لبس الكم الضيق وأن ابنه الملك الأشرف خليل أعطى لمماليكه (الأقبية الأطلس) والأقبية بشكل عام تفصل من قماش الأطلس وبألوان مختلفة – أسود – أحمر – أخضر – بنفسجي وكانت تفرّى أحيانا بفراء السمور. وكان السلطان وأثناء المواكب يلبس زردية، تحت قماشه، إذا كان في موكب، احترازاً من عدو غادر[35].

ومن الخصائص المميزة لزي السلطان (حزام) بند وكان عبارة عن شريط من الحرير الأصفر إذ كان من المألوف أن يلعب به البولو.

وكما ذكرنا بأن الذوق الخاص بكل سلطان كان له تأثيره على الملابس فقد كان حب قانصوه الغوري لحياة البذخ أن نبذ هذا النوع من الحزامٍ المتخذ من القطن البعلبكي واستبدل به حزاماً (حياصة) من الذهب الخالص[36] وكان يزين أصابعه بخواتم مرصعة بالأحجار الكريمة.

وأثناء الحملات العسكرية: كان السلطان يرتدي نفس الزي المخصص للميدان والذي يرتديه أمراؤه[37]. (انظر الشكل 10)

ومن مكملات الأزياء السلطانية الكثير من الأحجار الكريمة والمجوهرات والخواتم والأساور والسيوف بأشكال مختلفة، ولم تكن تعاليم الدين الإسلامي من حيث التقشف تعني الكثير للسلاطين المماليك حتى لأكثرهم تقوى.

مماليك الطبقة الحاكمة:

وكان زيهم يختلف من طائفة لأخرى، حتى زاد عددهم على المئة، وذلك على عكس المغول المعاصرين لهم ومن جنسهم، الذين كان لبس سلطانهم أو أميرهم أو خدمهم واحداً.

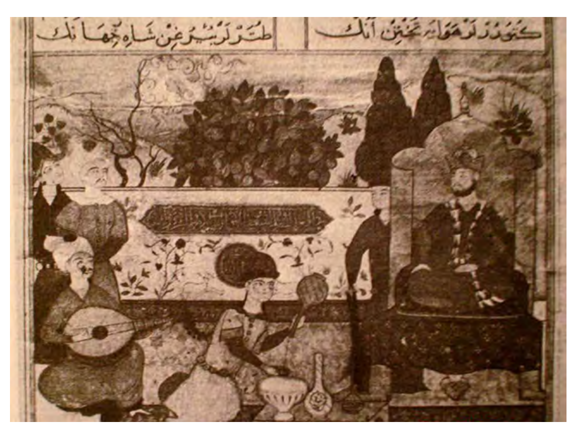
وفيما يلي سنأتي على وصف لزي المماليك معتمدين على المقريزي في كتابه الخطط – وهذا الزي ميزهم عن غيرهم، منذ أن أستولوا على الحكم بعد الأيوبيين، إلى وقت انهيار حكمهم.

وزيهم أساساً يميزه القباء والذي كان متنوعاً في مصدره فمنه المستوحى من المغول ودعي «الأقبية التترية» أو هندية «تكلاوت»[38] – وإسلامي «قباء إسلامي» حيث يورد ابن اياس أن الناصر هو أول من أتخذ الأقبية المفتوحة، وربما يعني القباء الإسلامي[39] مما يعني أن هذا القباء مفتوح، وله أكمام طويلة.

وكانت أزياؤهم في الصيف من الأقمشة الخفيفة البيضاء، وفي الشتاء من الصوف المحلى بالشعر أو الفرو[40].

ويشدون الوسط بحزام «منطقة» – جمعها مناطق –أو «بالحياصة»[41] – جمعها حوائص – حيث وجد لها سوق خاص في مصر، اسمه سوق الحوائصيين.


الشكل (8) لوحة من مخطوط الترياق لجالينوس من حوالي منتصف القرن السابع الهجري (13م) محفوظ بالمكتبة الأهلية بفينيا - السلطان مع رجاله ونسائه - يظهر عليهم اللباس التالي - الطويلة - العمامة - القلنسوة بفراء الطاقية - النقاب - القباء السلاري - وتظهر كذلك طريقة تصفيف الشعر لدى رجال المماليك بشكل جدائل رفيعة.


شكل (9) لوحة من مخطوط الشهنامة للفردوسي ويظهر فيها السلطان المملوكي يجلس على عرشه المصنوع من الذهب - وهو يرتدي الكاملية أو (الجبة) وكذلك التاج . محفوظة في متحف طوبقابو - استانبول

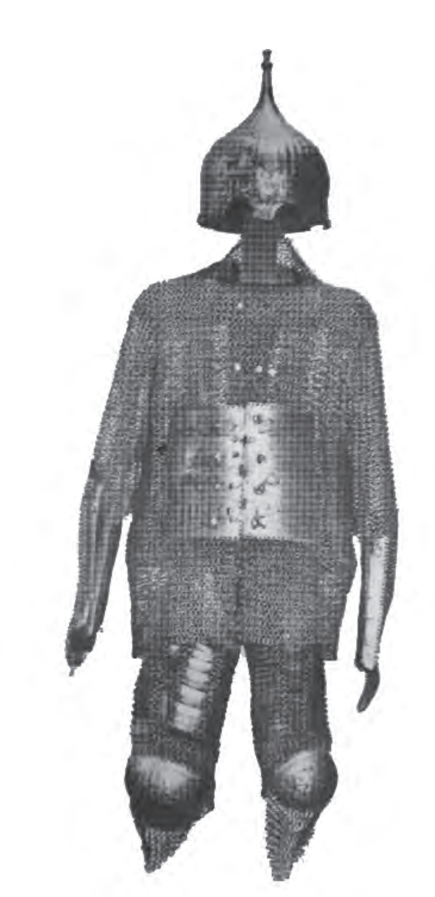
أما على الرأس فكانت الطاقية «كلوتة» وكان يلف حول الطاقية عمامة. في أرجلهم لبسوا الأخفاف من الجلد الأديم الأبيض في الصيف والأصفر في الشتاء [42]، شدت عليها المهاميز.

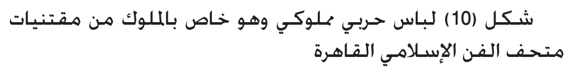
زي أمراء المماليك ومقدموا الحلقة وأعيان الجند: يتميز عن زي بقية العساكر، فيذكر المقريزي أنه اختلف زي الأمراء والعساكر في دولة المماليك[43]. فقد كان زي الأمراء أكثر فخامة وغنى، كما اختلف زيهم حسب درجاتهم، كان بعض الأمراء – كالسلاطين – يدخلون تعديلات على الأزياء.

وقد لبس الأمراء فوق «القميص» – سبق شرحه – و «اللباس» أي السراويل ثوبين متميزين[44] (انظر الشكل13).

أولها: الأقبية التترية «تحتاني» ومن فوقها الأقبية الإسلامية «الفوقاني» ويشدون عليها السيف من الجانب الأيسر، ويشدان إلى الجانب الأيمن حقيبة من الجلد البلغاري – لوضع المال وغيره تدعى «الصولق» والخنجر «كزلك».

الأقبية التترية «التحتانية»: ويستدل من الاسم أن هذا النوع من الملابس من أصل أجنبي وحسب دوزي في ملحق القواميس أطلق عليه أسم «الثوب الفارسي» وكان القباء يصنع من الصوف، والأطلس، والحرير أو القطن البعلبكي، وكان لونه إما أبيض أو مزين باللونين الأحمر والأزرق ويطلق




شكل (10) لباس حربي مملوكي وهو خاص بالملوك من مقتنيات متحف الفن الإسلامي القاهرة

عليه اسم «المشهر» وله أكمام ضيقة. وخلال القرن الثالث عشر حرم قلاوون هذه «الموضة»[45] الأجنبية وطلب بتوسيع أكمام القباء إلا أن هذا الإصلاح الذي فرضه قلاوون، لم يستمر طويلاً واستمر القباء بأكمامه الضيقة ولقد كان من المألوف ارتداء معطفين أو ثلاثة فوق القباء إذ يكون في الإمكان الاكتفاء بالثوب «التحتاني» فقط .

كما نقرأ عن السلطان الملك الأشرف خليل أنه قد أمر أمراءه بارتداء قلانس «كلوته» مطرزة أي «زركش» وذلك بدلاً من تلك المصنوعة من الجوخ وقباء من الأطلس[46] (انظر الشكل17) وكان من المألوف أن يرتدي الأمراء المصريون والسوريون فوق هذا المعطف القباء الإسلامي[47] «الفوقاني» ولعله ما عرف «بالسلاري» وهو قباء قصير الكم والطول وكان أمراء الطبقة الرفيعة يزخرفون أكمامهم بالأشرطة المطرزة ويزينونها بالفراء الغالي الثمن.





شكل (11) طست من النحاس والفضة من عمل ابن الزين (687هـ-1209م) والإناء مصور عليه ثمانية عشرة شخصية تعود إلى العصر المملوكي ويظهر عليها اللباس التالي : التاج - العمامة بأشكال مختلفة - القباء - السروال - البوت

فقد حدثنا ابن بطوطة في سنة 732 هـ أن جلد السمور كان يساوي 400 دينار هندي[48].

وبعد فترة من الزمن استمر لبس القباء القصير ذي الأكمام القصيرة من قبل الأمراء وأيضاً «أعيان الجند» ، ولكن كانت أكمامها أكثر اتساعاً من أكمام القباء «التحتاني» الضيقة[49] (انظر الشكل 11).

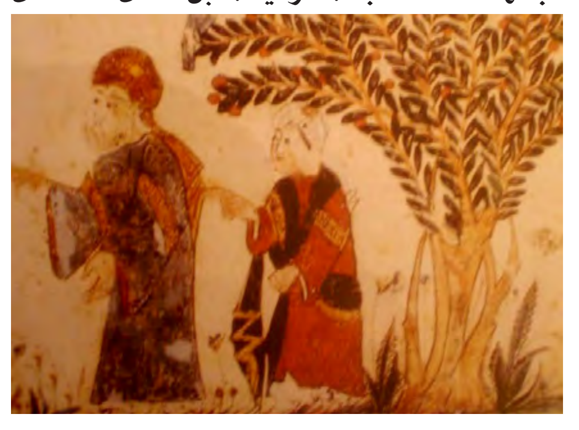
ويمكن الإشارة إلى أن هذا القباء «الفوقاني» أو «السلاري» نسبة إلى الأمير «سلار»، نائب السلطنة في عصر محمد قلاوون وبيبرس الجاشنكير. يطابق في وصفه معطفاً عُرف من قبل «بالبغطاق أو البغلوطاق»[50] (انظر الشكل 12) وتشير هذه الكلمة إلى قميص بدون ردنين أو بردنين قصيرين للغاية وهو يُلبس تحت الفرجية، وكان يُصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو الأخضر، وكان أحياناً يصنع من الأطلس وكانت هذه الثياب تزين بالجواهر واللآلئ بل كان بعضها ينسج ويُطعم كله

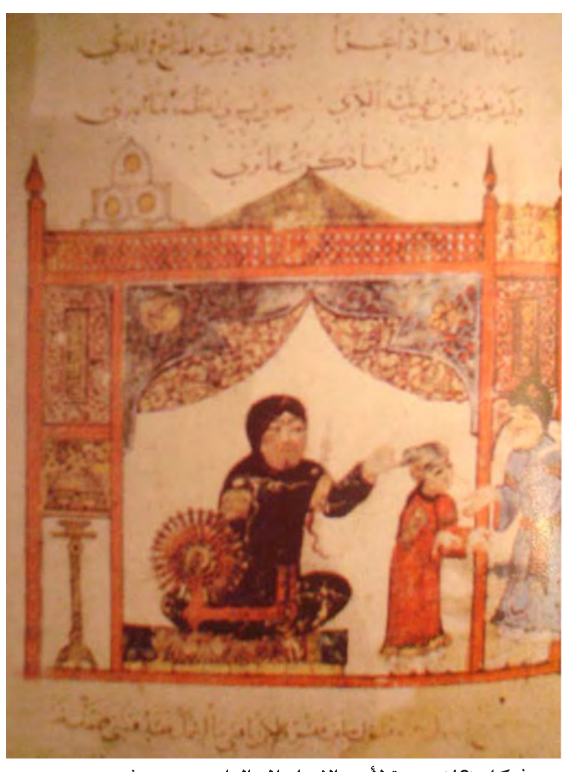

شكل (12) صورة لأحد الامراء المماليك مع ضيوفه وخدمه وهي من كتاب «معرفة الخيل» للجزري - 1315م - محفوظة في متحف فرير للفنون يظهر في الصورة - القلنسوة - القباء - الطراز

بالأحجار الكريمة وأخيراً فهو نفس اللباس الذي كان يدعي سلاري نسبة إلى الأمير سلار في أيام الناصر الذي أوجده، أما «العباءة» العادية الخاصة بأمير عظيم في العصر المملوكي الشركسي المتأخر، فكانت تدعي «الملوطة» وهي عبارة عن رداء «فوقاني» له ياقة.

وحسب دوزي: (المعجم المفصل بأسماء الملابس) أن المعنى[51] بكلمة ملوطة هو الجبة، (انظر الشكلين13-4).

وقد جرت العادة أن يرتدي المماليك في الأيام الممطرة عباءات مصنوعة من خامة خشنة لها وبر يطلق عليها أسم «جوخة»، وقد ورد عن المقريزي في كتابه (الخطط - ج2 - ص 98) أنها لم تكن تلبسها فقط الطبقة الرفيعة، بل كان السلطان


شكل (12) صورة لأحد الامراء المماليك مع ضيوفه وخدمه وهي من كتاب «معرفة الخيل» للجزري - 1315م - محفوظة في متحف فرير للفنون يظهر في الصورة - القلنسوة - القباء - الطراز


شكل (12) صورة لأحد الامراء المماليك مع ضيوفه وخدمه وهي من كتاب «معرفة الخيل» للجزري - 1315م - محفوظة في متحف فرير للفنون يظهر في الصورة - القلنسوة - القباء - الطراز

فرج نفسه يرتديها من حين لآخر.

أما الحزام الذي يشد إلى الوسط «المنطقة أو الحياصة»، فكان دائماً من الذهب أو الفضة، مرصع بالفصوص الجوهر (انظر شكل 14) أما «المهماز» فتارة يكون من الذهب أو من الفضة المحضة، أو من حديد مطلي بالذهب أو الفضة.

أما لباس الرأس، فاختلفت أنواعه منها:

الطواقي «كلوته» التي تلف حولها العمامة. والصغيرة منها سميت «الناصرية» نسبة إلى السلطان الناصر، والكبيرة منها سُميت «طرخانية» نسبة إلى الأمير بلبغا الخاصكي وكذلك عُرفت في عصر برقوق عمامة أطلق عليها اسم «عوج» وهذا النوع من العمامة انتشر أيام المقريزي وسمى بالكلوتات الجركسية[52] وكان المنديل يلف حول الكلوتة ليشكل انتفاخات (انظر الشكل 7).

الشربوش - وله المكانة الأولى كلباس للرأس - إذ يعتبر بصفة خاصة الطابع المميز للباس الأمير. وقد وصفه المقريزي بأنه مثل «شيء يشبه



الشكل (15) لوحة من مخطوط الشهنامة للفردوسي القوس المزخرف والباب الخشبي الذي يظهر في مؤخرة اللوحة - يعودان إلى العصر المملوكي - اللوحة رسمت في بداية القرن 16م - ويظهر فيها السلطان وعلى رأسه التاج (الشربوش)

التاج» ويبدو كما لو كان مثلث الشكل ويوضع على الرأس بلا عمامة «أي لا يلف حوله منديل» (انظر الشكل15) + (انظر الشكل – 9).

العمامة الأميرية وكانت تمنح لهم مع ثياب التشريف لدى تسلمهم الإمارة والشكلان الرئيسيان لهما هما التخفيفية الكبيرة (الناعورة)[53] والتخفيفية الصغيرة – وقد سبق شرحها- .

السراقوج: وهو لباس خاص بالعسكريين وكان يشبه إلى حد كبير الزي التتري المميز، وقد حدث سنة (692هـ الموافق لـ 1293م) أن طلب عز الدين أيبك الرومي – عندما كان وقتئذ في قلعة المسلمين – من الملك الأشرف خليل أن يرسل إليه ثلاثين طاقية سراقوج بقصد جعل جواسيسه غير متميزين عن التتر[54].

والسراقوج هو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى – (انظر الشكل 16) (انظر الشكل6). وتجدر الإشارة بأنه هذا النوع من لباس الرأس اختفي من عالم الأزياء خلال عصر "المماليك البحرية" . ثم بعد مضي قرن من الزمان، عاد إلى الظهور في عصر المماليك الشراكسة كلباس رأس للسيدات.

زي حاشية السلطان «الخاصكية»: وقد لبسوا أحسن الملابس، منذ السلطان الأشرف خليل. فكان يغلب على زيهم اللبس المزخرف. وقد تميز الأمراء منهم، بلبس الأثواب «الأقبية» من القماش الأملس «الأطلس»، اللامع «المعدني» وقد زُخرفت بالنقوش «الطرازات الزركش» وعلى رأسهم الطواقي المزخرفة «الكلوتات الزركش» أيضاً[55] (انظر الشكل 17).

زي الأوشاقية أو الأوجاقية: وهم الفرسان الذين يسيرون في الموكب السلطاني: وهم يركبون



شكل (16) لوحة من مخطوط مقامات الحريري المؤرخ نسبة 634 هـ - يظهر بها اللباس التالي-القلنسوة الطويلة - السروال-العمامة

خيولاً يلبسون ثوبين قباءين متشابهين من حرير أملس «أطلس» صفر، بزخرفة زركش، وعلى رأسهم يلبسون قبعة أو كوفية مزخرفة «زركش» بالذهب.(انظر الشكل 18).

زي أرباب المناصب من غير المماليك:

الوزير: وكانت خلعة الوزير عبارة عن ثوبين «فوقاني» من القطيفة الحرير مطرزة بخطوط «رقم» حريرية، وأحياناً تكون محلاة بشعر «السنجاب» (انظر الأشكال 4 - 13) أو بفرو القندس أما «التحتاني» فهو من الحرير «الكمخا» وكان لونه أخضر وقد غلب على زي الوزير ما عُرف بإسم «جبة»[56] أو «فرجية» تكون مفتوحة و«مفرجة» من الخلف.

وهذا الزي بنوعيه كان يلبسه رجال الدواوين ولم يُقلد الوزير السيف كما كان الحال أيام الفاطميين[57]، لأنه لم يعد له نفوذ على رجال السيف.

وكذلك يضع الوزير على المنكب حول الرقبة منديلاً «طرحه»[58] (انظر الشكل 4) ويلبس الوزير كذلك «العنبرية» وهي عبارة عن قلادة ضخمة مصنوعة من العنبر وهي تنوب عن الطوق أو العقد الجوهر، الذي كان للوزير الفاطمي، وذلك ربما لرخص القلادة العنبر، ولضعف مركز الوزير في عهد المماليك عنه في عهد الفاطميين.

وعلى الرأس يلبس الوزير نوعاً خاصاً من العمامة المسماة (بقيار)[59] وهي مخططة. وقد هجروا الذؤابة المرخاة على الظهر «العذبة» والتي أصبحت تميز عمائم رجال القضاء وحدهم. أما في رجليه، فيلبس خفاً من الحرير الأخضر.

وعن زي القضاة: وكانوا بالضرورة يلبسون السواد إلا في الصيف، فيلبسون لباساً أبيض[60] وقد تميز لباسهم بما عُرف «بفرجية العلماء» أو «دلق» وحسب دوزي: الدلق: ضرب من الرداء الطويل، المؤلف من خرق الجوخ المختلفة الألوان[61] وهو متسع الأكمام، مفتوحاً فوق الكتفين وسابلاً على القدم، وأحياناً مزوداً بالأزرار.

وعلى الرأس يلبسون عمامة كبيرة للغاية «شاشية أو شاش»، يترك فيها طرف طويل «ذؤابة أو عذبة» تسترسل بين الكتفين حتى تبلغ «قربوس» سروجهم ويلبسون «الطرحة» التي تستر العمامة، وتنسدل على الظهر أما لباس القدم فكان دائماً الخف من الجلد «الأديم»

أزياء رجال الدين:

ويقصد بطائفة رجال الدين العلماء والمسلمون من غير الطبقة العسكرية، وقد أطلق عليهم أسم «أرباب العمائم» أو «المتعممون» وذلك بسبب كبر



شكل (17) لوحة من مخطوط مقامات الحريري - المؤرخ سنة 634هـ يظهر فارس من الحرس السلطان وهو يرتدي قباءين من الأطلس الزركش



شكل (18) لوحة تعود إلى العهد المملوكي مجموعة للفنان علي-موجودة في مكتبة بيتي دوبلن - يظهر في الصورة فارس مملوكي يحمل سيفه ويلبس الخوذة العسكرية وبيده الأخرى يحمل العمامة «التخفيفة الكبيرة» ويظهر كلك القباءين والمهماز

حجم عمائمهم ولأنها الجزء الأهم في لباسهم[62] وتتضح أهمية العمامة عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمائم الملونة التي كان يمكن بها تمييز المسيحيين واليهود عن المسلمين فقد ذكر القلقشندي في خططه بأن «أهل الذمة بالشام، من النصارى لبسوا العمائم الزرقاء»، واليهود الصفراء والسامرة الحمراء « وهذا القول انطبق على العمائم دون أي جزء آخر من الملبس وكانت تصدر الكثير من الأحكام والأوامر الخاصة بتقييد أحجامها.

وكان يُلبس تحت العمامة والتي تبلغ حوالي سبعة أذرع من القماش. طاقية صغير ويطلق عليها اسم «قبع» وكانت الطبقات الدنيا من الشعب تلبس على ما يظهر «الطاقية» دون استعمال أي شيء آخر معها[63]. أما على جسدهم فقد لبس المشايخ «الدلق» فوق ملابسهم. وكان رجال الدين من الطبقة الأدنى يضعون فوق رؤوسهم عمامة أكثر أناقة ويرتدون بدلاً من الدلق[64] «الفرجية» وجرت العادة أن يرتدي العلماء في الشتاء ملابس من الصوف الأبيض، أما الملابس الملونة فلا تلبس إلا في منازلهم فقط، وكانوا يلبسون الأخفاف من الجلد الطائفي، بدون مهاميز[65].

وفي الأيام المطرة، جرت العادة أن يرتدي رجال الدين، من الطبقتين الرفيعة والدنيا عباءات من قماش سميك له وبر، يطلق عليها اسم «جوخة» «سبق شرحها».

لباس السادة الأشراف:

وهم الذين يتصلون بصلة النسب بأسرة النبي، محمد (ص) وقد لبسوا على أبدانهم «الفرجية»، وعلى رأسهم عمائم «شطفات»[66] لونها أخضر، حتى يمتازوا بها عن غيرهم، وتعظيماً لقدرهم.

وعن زي الصوفية: وهم رجال الدين، الذين كانت الدولة المملوكية تقيم لهم التكايا والخوانق[67] – وهي أماكن العكوف على العبادات – وكانوا غالباً يحضرون حفلات السلطان الدينية، وكانوا يلبسون مثل القضاة والعلماء – «الدلق» إلا أنه أقصر قليلاً ولا يصل إلى القدمين، كما يرضون ذؤابة صغيرة لا تكاد تلحق الكتف، وذلك على الأذن اليسرى.

وبشكل عام كان رجال الدين حريصين على عدم ارتداء الملابس المحرمة، ويقصد بها المصنوعة من الحرير، والأطلس، أو من أقمشة أخرى يغلب الحرير على خاماتها وفي أثناء الاحتفال بالمولد النبوي، جرت العادة أن يخلع السلطان أحياناً على المقرئين والخطباء مقاطع من الحرير، ولكن هذا ليس دليلاً على أنهم سيتخذون منها ملابس لهم.

ملابس النساء من أهل السلطان والأمراء:

تكاد المعلومات عن ملابس النساء قليلة للغاية، وإن كان ولا ريب لباساً متقدماً جداً، ومتنوعاً، وكثيراً، فقد ذكر القلقشندي في كتابة صبح الأعشى بأن وصف ملبوس زوجات السلطان «الخوندات» يحتاج الى عدة مجلدات لوصفه.

إلا أنه لم يكن هنالك من مؤرخين أو شعراء يستطيعون أن يتغنوا بها وكذلك لم تنوه القوائم التي تتضمن جهاز العرائس والمرفقة بعقود الزواج التي تعود إلى العصر المملوكي بأسماء تفصيلية لأزياء النساء.

وإنه لمن الخطأ أن نظن بأن تلك الملابس كانت بسيطة أو زهيدة التكاليف. وإذا صدقنا عبارات المقريزي الذي كان يشغل وظيفة «محتسب» ويتحمل مسؤولية مراعاة آداب السلوك الخاصة بالنساء القاهريات، ومن ثم كانت له خبرة واسعة في مثل هذه الأمور، فإن الميول كانت عظيمة الاتجاه نحو مظاهر الترف والبذخ. حتى لدى نساء الطبقات

الدنيا واللاتي كن يلبسن الفراء المستورد[68].

وذلك بالرغم من قوانين التقشف التي كانت تصدر المرة تلو الأخرى، إلا أن «خوندات» زوجات السلاطين كنَّ لا يتقدين بها، وحالات كثيرة ممكن أن نوردها كأمثلة، إلا أن أكثر الأمثلة التي تبعث على الدهشة من حيث المبالغة في التبذير هي قصة زوجة السلطان «برسباي» (1422-1438م) التي صرفت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب واحد، صنع خصيصاً من أجل حفل ختان ابنها وولي عهد «برسباي» الملك «العزيز يوسف»[69].

وغنيٌّ عن البيان أن نساء المدينة كن يطفن محجبات، وكانت توجد أشكال متنوعة من الحجب وهي (المقنعة ، والقناع ، والنقاب) وفيما يلي سنشرح هيئة أغطية الوجه والتي تعتبر جزءاً من هيئة ملابس الخروج للمرأة : وحسب معجم دوزي – المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب ، ص 305 – يوضح أن كلمة قناع (وربما كذلك كلمة مقنع وكلمة مقنعة) تشير إلى خمار وجه تستعمله النساء. ويصفه لين (ألف ليلة وليلة، ج1 ، ص210) على هذه الشاكلة: «القناع قطعة من الشاش الموصلي له طول ذراع أو أكثر» وله أقل من ذلك العرض، ويوضع شطر منه فوق الرأس، تحت الإزار، ويتدلى سائره، من الأمام، حتى الوسط، وهو يغطي الوجه بتمامه وكان القناع أحياناً يصنع من الحرير ويزركش بالذهب.

أما النقاب وبعد مراجعة المعجم المفصل – لرينهارت دوزي ، ص 342 ، 343 ، 344 – فقد ذكر أن النقاب ما هو إلا برقع تثقب فيه المرأة موضع العين وممكن للنساء الموسرات أن يتبرقعن بأنقبة حريرية حمراء، أما بنات الفقراء فلا يتبرقعن إلا بالتيل الأبيض أو الأزرق، وهذان النوعان من الخرق لها فتحات صغيرة أمام العيون لتستطيع الإناث المتبرقعات بها أن يمشين في طريقهن وإن ظهور المرأة بدون قناع بين الجمهور دليل على فقرها الشديد (انظر الشكل 8).

ومن ملابس الهيئة الخارجية:

الإزار: وهو الغطاء الشامل للجسد، وبالرغم من أنه لا يمكن للمرأة أن تظهر إلا به، إلا أن ذلك لم يقف عائقاً أمام الأزياء والتصميمات الكثيرة التي لبستها نساء المماليك داخل قصورهن وكان إزار نساء المماليك من الحرير – وتجدر الإشارة أن هذا النوع من الرداء عُرف منذ العهود الإسلامية الأولى وكان لباساً رجالياً فقط إلا أنه في العصور المتأخرة لم يعد يستعمل لتعيين رداء من أردية الرجال – ولقد ورد وصفه في (ألف ليلة وليلة، ج1، ص 210) أن الإزار هو قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات عادة عندما يبرزن للجمهور . عرض الإزار ذراعان أو أكثر .وطوله ثلاثة أذرع، وتسحب النساء من قسمه الخلفي حاشية على الجزء العلوي من الرأس وعلى الجبين ويعلقن هذه الحاشية حينئذ بشريط مخيط من الداخل. أما البقية فتتدلى إلى الخلف وإلى كل جهة حتى تبلغ الأرض أو تكاد تمسها وهذا الإزار يلف الجسم كله تقريباً، لأن المراة تمسك بنهايته بصورة تجعله يلفها من الجهة الأمامية أيضاً، وهكذا تغيب في هذا الكيس[70] .

ومن الثياب التحتانية التي ارتدتها النساء:

المئزر: وهو نوع من السراويل القصيرة التي تصل إلى الركبتين[71].

السراويل الطويلة: ولقد لبستها النساء بسبب حث الإسلام على لبسها إذ وردت أحاديث نبوية تدعو النساء إلى لبس السراويل، منها: «يرحم الله المتسرولات من النساء» وكلمة سراويل مشتقة من الكلمة الفارسية شلوار، وكانت مستعملة منذ العهود الإسلامية الأولى[72].

ولقد اختلفت الآراء – فيما إذا كان هذان النوعان – من السراويل معمماً على جميع فئات الشعب أم لا – ولكن من المؤكد أن المرأة في البلاط المملوكي ارتدت السراويل الطويلة وهذا ما تأكد تماماً عندما ألقيت جثة السلطانة المملوكية شجرة الدر (1250م) بعد أن تم قتلها من قبل جواري الحريم بقصرها. حيث كانت ترتدي السراويل وقد رُبطت إلى جسمها برباط نفيس، يطلق عليه اسم "تكة"[73] والتكة هي رباط السراويل ، وهو لا يظهر إذ أنه محجوب بالملابس الفوقانية ، وتصنع التكة من الحرير أو من الموصلي، وهي في أغلب الأحيان مطرزة موشية، وكانت تبلغ أسعارها

أحياناً مئات الدنانير إذ كانت تصنع من الذهب أو من المجوهرات فقط[74]. وارتدت النساء كذلك ما يسمى: «البهطلة» وهو قميص له أكمام واسعة، تبلغ ثلاثة أذرع وله ذيل طويل ينسدل على الأرض، وكانت تتكلف عليها السيدات أموالاً طائلة، وندين إلى المقريزي بالتفصيلات القليلة التي أوردها بشأن الأثمان الباهظة للملابس، فكانت «البهطلة» أحياناً يزيد سعرها على أكثر من ألف درهم، وكذلك «الإزار» والأحذية «الخف والسرموزة».

ونوع آخر من الملابس ارتدته المرأة «البغالطيق»[75] وقد ورد وصفه في كتاب كاترمير: (تاريخ السلاطين المماليك، ج1 ، ق2، ص75 و76) بأن كلمة – بغلطاق – تشير إلى نوع من القمصان قصيرة الكم أو من غير كم وكان هذا الثوب يصنع من قماش الأطلس المديني. وكانت هذه الثياب تزين بالجواهر واللآلئ، بل كان بعضها ينسج ويطعم كله بالأحجار الكريمة (انظر الشكل 22).

وكن يستخدمن – كلباس للرأس – قطعة من القماش يطلق عليها اسم «العصابة» وكانت تلف كالعمامة حول الجزء العلوي من الإزار الذي يغطي الشعر، وكانت في أحيان كثيرة تزينها عبارات دينية أو زخارف غنية جميلة مطرزة ومحلاة بالأحجار الكريمة (انظر الشكل22).

العمامة النسائية: ويستدل على وجودها من الطريقة العنيفة التي هاجم بها رجال الدين النساء اللاتي يلبسن العمائم وقد صدر عام 662هـ مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمائم، فاختفى هذا الزي وحل محله «الطرطور» وهو عبارة عن طاقية عالية مخروطية الشكل[77].

ولبست النساء في باكورة القرن التاسع الهجري نوعاً من طاقية كان ارتفاعها نحو ثلثي ذراع، ولها قمم على شكل القباب، وتتسع بقدر ثمن ذراع تقريباً وعملوها من الذهب[78] كما لبسن في أرجلهن الأخفاف المزكرشة وكنَّ يلبسن فوقها حذاء قصيراً يطلق عليه اسم سرموزة وهو نوع من الأحذية القصيرة تسمى «نعل» تخلع عند دخول المنزل.

ويبدو أن زي النساء في عصر المماليك، كان يتغير حسب الرائج وقتذاك كما كان بعض السلاطين يتدخلون في هذا الزي، حتى لا يخرج عن الحدود فمرات كثيرة منعوا ارتداء القمصان ذات الأكمام الواسعة، التي تزيد عن ثلاثة أذرع، كما عورض تشبه النساء بالرجال، فمنعن من لبس الثياب المفتوحة الأقبية القصيرة، كما منعن من لبس العمائم الكبيرة[79] أو كتابة العبارات الدينية على العصائب، أو المبالغة في تكاليف هذه الملابس.

الخاتمة

بالرغم من تواضع أصل المماليك، إلا أن فترة حكمهم تميزت بالبذخ والميل إلى الترف، وعُرف عنهم حب التمتع بالحياة وقد ساعدهم على هذا مجموعة من العوامل لعل أهمها انتقال مقر الخلافة العباسية إلى مصر بعد سقوطها في بغداد على أيدي المغول، وذلك أعطى لمصر مكانة كبيرة في العالم الإسلامي انعكست على جميع مناحي الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية .

وقد بينَّا من خلال الدراسة المختصرة بعض المعلومات عن الأزياء التي استخدموها، وكيف لعبت الأخيرة دورها في الدعاية السياسية للسلطة الحاكمة، فالمواكب والاستعراضات التي كان السلاطين يقومون بها في المناسبات المختلفة كانت تُشكل إبهاراً يفوق التصور، حيث كانت الأزياء عنصراً مؤثراً فيها.

كذلك ظهر دور الملابس في تحقيق التبعية والإخضاع لبعض عناصر المجتمع، خاصة أهل الذمة، وناهيك عن «خلع التشريف» التي كانت الدولة تمنحها لرجالها وموظفيها الموالين لها.

ولقد أشارت الدراسة كيف أثر الانفتاح الاقتصادي على صناعة الأزياء والحرف المرتبطة بها وخاصة حرفة النسيج.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن اطلاعهم على الثقافات المختلفة فتح المجال إلى الاقتباس والابتكار في مجال الأزياء.

وكانت تصميمات الأزياء تخضع لمواصفات وشروط تختلف من زي لآخر وذلك تبعاً للوظائف المختلفة داخل البلاط السلطاني، فكان الزي يختلف من الأمير إلى الوزير إلى رئيس الديوان إلى الجند

وأعيانهم، فلكل منهم زيه الخاص من حيث الخامة والتفصيل واللون وكذلك الحال بالنسبة لنسائهم.

مما سبق يتضح لنا وبجلاء السبب الذي يجعل علماء الحضارات يعتمدون على اللباس ويعتبرونه من أهم المقومات الحضارية التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة مدى تقدم وتأخر الشعوب.

المصادر والمراجع

نعمت إسماعيل علام: فنون الشرط الأوسط في العصور الإسلامية، ط 5، ص271.

المرجع السابق، ص 272.

المقريزي: الخطط المقريزية 4 أجزاء جـ2، ص98 القاهرة 1326هـ.

المرجع السابق: الخطط جـ1 ، ص 364، 365.

ابن تغري بردي (ابو المحاسن): النجوم الزاهرة، تحقيق (بوبير) ج6، ص90 ، 94.

المقريزي: الخطط، ج3، ص 369 .

المقريزي: الخطط، جـ 3، ص 24، 25، وهو قماش من الحرير، ينسج بالخيوط الذهبية.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة، دار الكتب، ط2، تحقيق Popper، ط 1928 - 1909 Berkeley، وقد ترجم الجزء الخاص بالمماليك.

المقريزي: الخطط ، جـ 2، ص 98.

ابن إياس: تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور، ط. بولاق 1311 ج4، ص104.

في الفترة المملوكية كانت الدولة تقدم ما يسمى: لباس التشريف- أو الخلع السلطانية وهي كلمة لا تعني بالضرورة الملابس فقط، فمن الممكن أن تكون فرساً كامل القماش، وكانت تختلف على حسب درجة لابسها، ولعل أهم ما يميزها هو وجود اسم السلطان منقوشاً عليها بلون يختلف عن لون خيوطها (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، جـ4 ، ص7، القاهرة 1913) وكانت الخلع تقدم غالباً عند تولية السلطان، حيث تكون لسائر أرباب المملكة، ويمكن أن تقدم إلى ضيوف الدولة أو اللاجئين إليها أو التجار، ويمكن أن تكون خلعة السفر، وخلعة الرضا (ابن تغري بردي- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج6، ص90، 94) .

المقريزي: الخطط، ج3، ص 352.

ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص 204 - 205.

ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج9، ص 69، تحقيق زريق وعز الدين، بيروت 1936 - 1942.

دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم الفاضل، بغداد، ص285 286-.

القلقشندي: صبح الأعشى، ص 276 يشير القلقشندي إلى أن الرفرف نصف ذراع في ثلث ذراع .

ابن إياس، تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة بولاق، ج3، ص27.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 276، (القاهرة 1913-1919).

المرجع السابق، ج4، ص53.

المقريزي، الخطط، ج3، ص16.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج4 ، ص 40، خليل الظاهري زبدة كشف الممالك، تR9 ط باريس 1984، ص 88.

خليل الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق Ravaiss، ط.1891 ، paris، ص 86.

ابن تغري بردي (ابو المحاسن): مورد اللطافة، تحقيق Carlyle، ط Cantabrigise ، 1972، ص 45، 78، 102.

Esim Atil : renaissance of Islam Art of the mamluks, D.C.,1981,p264

دوزي:المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب، ت أكرم الفاضل، بغداد 1971ص 146-147

Esim Atil : Ibid-p261

دوزي: معجم الملابس، ص 265 - 266 - 269.

المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك - ج7، ص48.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ج6، ص 173.

المقريزي: الخطط، ج 3، ص 340.

ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4، ص 332 والتخفيفة الكبيرة "الناعورة" وهو اسم للساقية السورية، وتعرف به كثيراً في منطقة حماه، وهذه الكلمة ترمز إلى كبر حجمها ولكونها مسننة كترس الآلة، وهو أكثر الأسماء مطابقة للتخفيفة الكبيرة من ناحية التهكمية.

دوزي: مرجع سابق، ص 312 ، 313 ط بغداد.

ابن إياس: مرجع سابق، ج4، ص 418، 420.

إزار أو الإيزار: كان يبدو في العهود الإسلامية الأولى أن كلمة إيزار قد استعملت لتعني ثوباً بصورة عامة مهما كان شكل هذا الثوب - وأن الإزار هو الرداء - وفي العصور المتأخرة - من الإسلام أي منذ عهد محمد (ص) وحتى أيامنا هذه، تدل على كلمة إيزار على هذا الغطاء الكبير أو الرداء الواسع الذي تلتف به نساء الشرق. دوزي، معجم الملابس، ط بغداد ، ص 31.

المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك، 2/1 ص 608.

ابن إياس، مرجع سابق ج 2، ص 82.

صلاح عيسى: رجال مرج دابق، مكتبة التاريخ - ص 20 .

دوزي - المعجم المفصل - ص 85 - ط بغداد .

ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 173.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 40 .

القلقشندي: المرجع السابق، ج 3، ص 161.

القلقشندي: المرجع نفسه، ج4، ص 41.

المقريزي: الخطط ، ج 3، ص 352.

المقريزي: الخطط، ج3، ص 352.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 98 - 99.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 99.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 217.

ابن بطوطة: ج2، ص 402.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 40.

رينهارت دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس لدى العرب، ص 72 ط بغداد.

رينهارت دوزي: المرجع السابق، ص 332.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 217.

ابن إياس: بدائع الزهور، ج3 "تحقيق كالة ومصطفى"، ص 153.

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص 783.

رينهارت دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس، ص 312 - 313 - ط بغداد.

المقريزي: الخطط، ج 3، ص 371.

عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين، ج1، ص 90.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 370.

المقريزي: الخطط، ج3، ص 370.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 41 - 42.

رينهارت دوزي: المعجم المفصل ص 150 - طبقة بغداد.

النجوم، مرجع سابق، Popper ، ج7، ص125.

رينهارت دوزي: المعجم المفصل - ص 230، ط بغداد .

القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 42.

القلقشندي: المرجع السابق، ج 4، ص 41.

عمائم شطفات وحسب معجم رينهارت دوزي - المعجم المفصل بأسماء، ص188 بأن الشطفة هي عبارة عن طرحات تشد حول الرأس - وكانت خاصة بالبدو والوهابيين.

المقريزي: الخطط، ج4، ص 271 وما بعدها.

المقريزي: الخطط، ج2، ص 103.

نفس المصدر: ج2، ص 384.

رينهارت دوزي: المعجم المفصل بأسماء ص 31 - 32، طبعة بغداد.

رينهارت دوزي: المصدر السابق، ص 40.

رينهارت دوزي: المصدر السابق، ص 168 ، 169.

المقريزي: السلوك، ج1، ص 404.

دوزي: مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.

المقريزي: الخطط ، ج4، ص 127 - وكذلك أنظر - دوزي: المعجم المفصل، ص 71.

Brend Barbara: Islamic art - British lilerary , 2005,p108-.

رينهارت دوزي - المعجم المفصل، ص 217 .

المقريزي: الخطط، ج3، ص 169.

المقريزي: السلوك، ج1، ص 503